بابـــر

للدكتور عبد الوهاب عزام

[بقية ما نشر فى العدد الماضى]

محمد ظهير الدين بابر
مؤسس الدولة المغولية فى الهند

— ١ —

لم تخضع الهند لبابر بعد موقعة بانيبات فقد بقى أخو السلطان إبراهيم مطالباً بالملك والبلاد كارهة غارة بابر ، وكثير من المدن والقلاع متأهبة للدفاع ، وكادت جيوش بابر تهلك جوعاً على كثرة ما بأيديها من الغنائم ، وزاد حالتهم سوءاً شدة الحر . تقرأ فى بابرنامه هذه السطور : « لما جئت إلى اكركان وقت الحر وكان الناس قد فروا من الخوف فلم نجد حبًّا لنا ولا علفاً لدوابنا ، وكانت القرى قد نهبت إعناتاً لنا وكراهية فينا، وأفسدت الطرق... إلى أن يقول : « وكان الحر هذه السنة أشد من المعتاد ، وكثير من الناس سقطوا كأنهم أصيبوا بالسموم وماتوا فى مواضعهم »

شرعت جيوش بابر تتذمر كما تذمرت جيوش الاسكندر حينما فتح الهند من قبل ، وهموا بالرجوع إلى كابل وقد ذكرهم هذا الحر هواءها البارد ؛ فجمعهم بابر وذكرهم أنهم تحملوا ما تحملوا وقاسوا ما قاسوا من أجل هـذه الغاية التى بلغوها اليوم : « إن عدواً قوياً قد هزم وإن تحت أقدامكم مملكة عظيمة ، فهل نترك كل ما كسبنا بعد أن بلغنا الغاية التى سعينا إليها ونفر إلى كابل كأننا جيش مهزوم مطارد ؟ من كان يزعم أنه صديق فليقلع عن هذه الوساوس . ومن لم يستطع أن يقسر نفسه على البقاء فليذهب » . وخجل الجيش فلم يحر أحد منهم جواباً

وجاهد بابر لتهدئة البلاد بالرغبة والرهبة ، ولم يكن له بد من لقاء عدو هو أكبر الأعداء فى الهند . ذلكم رانا سانجا زعيم الأمراء فى رجبوت ، قد جمع مائة وعشرين قائداً وثمانين ألف حصان وخمسمائة فيل ، وأيده أمراء آخرون وجاءته الجيوش من أرجاء مختلفة

وخرج إليه بابر سنة ٩٣٤ هـ (١١ فبراير سنة ١٥٢٧) بعد سنتين من موقعة بانيبات وهى أول مرة يتقدم فيها لحرب عدو من غير المسلمين . وعسكر بابر عند سكرى التى سميت فيما بعد فتح بور ، وبنى فيها جلال الدين الأكبر قصوراً عظيمة وظل خمسة وعشرين يوماً يحصن معسكره وينشر السكينة فى قلوب قومه وقد ملكهم الرعب مما سمعوا ورأوا من شجاعة الرجبوتيين. فى هذه الشدة هجر بابر الخمر وكسر أقداحها وأراق دنانها ثم جمع جنده فخطب فيهم: «أيها الأمراء والجند، لا بد لمن يجىء لهذا العالم أن يفارقه؛ وإنما البقاء لله الذى لا يتغير. وكل من جلس على مائدة الحياة شارب كأس الموت لا محالة ، وكل من طرق نزل الفناء هذا فهو لا بد راحل يوماً عن دار الحزن . أولى بنا أن نموت أحراراً من أن نعيش أذلاء

«إن من فضل الله علينا أن ضمن لنا إحدى الحسنيين، فإن متنا متنا شهداء ، وإذا ظفرنا ظفرنا فى سبيله . هلم نقسم جميعاً بالله العظيم ألا نفر من هذا الموت وألا نرهب مآزق الحرب حتى تفارق أرواحنا أجسادنا »

فأقسموا جميعاً على القرآن . وتقدم بابر فى جموعه وعبأ جيشه كما فعل فى بانيبات من قبل ، ثم ركض جواده بين الصفوف يحض الناس على القتال والصبر ويعلمهم ما يجب عليهم حين تنشب المعركة

والتقى الجمعان فى كنوها (١٦ مارس سنة ١٥٢٧) واحتدم القتال واشتدت حملات الرجبوتيين واستمر الجلاد وجهاً لوجه ساعات كثيرة. ثم أرسل بابر سرايا المغول لمفاجأة العدو من الخلف

وانتهى الأمر بهزيمة عدوه بعد أن اسهمات فى القتال تاركاً آلاف القتلى فى المعترك . وفر سنجا مثخنا بالجراح ومات بعد قليل ، ثم لم يتعرض أحد من ذريته من بعد لحرب أحد من سلالة بابر

بهاتين الوقعتين فى بانيبات وكنوها حطم بابر أعظم القوى المخالفة فى الهند . ثم استطاع أن يقضى على مخالفيه واحداً بعد الآخر فى مواقع كثيرة آخرها موقعة هزم فيها المقاومين من سد مملكة دهلى وحلفاءهم من جيوش بنغاله بعد سنين من موقعة كنوها

عاش بابر بعد هذه الوقعة الأخيرة سنة ونصف سنة أمضى معظمها فى أكرا مجتهداً فى تنظيم مملكته الجديدة

— ٢ —

كان محمد ظهير الدين بابر سوى الخلق محكم البنية قوياً فارساً ماهراً رامياً حاذقاً حمل رجلين تحت ذراعه وجرى بهما على سور إحدى القلاع. ويقول فى بابر نامه: « اجتزت نهر الكنك سباحة وعددت ضربات ذراعى فوجدتنى قد اجتزت النهر بثلاث وثلاثين ضربة ، ثم أخذت نفسى وسبحت إلى العدوة الأخرى »

وكان جلداً على ركوب الخيل . وكثيراً ما قطع ثمانين ميلاً فى اليوم . وقد أمضى معظم حياته فى الأسفار والحروب

ولكن نوبات الحمى وكثرة تطوافه وتقلب الغير بها دهراً، والشدائد التى قاساها، والخمر التى لم يسلم منها أحد من بنى تيمور، ثم الأفيون — كل هذا أنقض ظهره وناء بجسمه القوى. فها هو ذا على فراش الموت فى قصره الجميل وحديقته فى مدينة أكرا

مات بابر سنة ٩٣٧ هـ فى سن التاسعة والأربعين (٢٦ ديسمبر سنة ١٥٣٠ م) بعد سبع وثلاثين سنة من تملكه فى فرغانة

— ٣ —

وكان بابر كسائر بنى تيمور مولعاً بالآداب والفنون ، يقرأ الشعر وينظمه ، ويعجب بالأبنية الجميلة ، ويهتم بتنسيق الحدائق وغرس الأزهار ، ويكلف بالغناء والموسيقى .

ونحن نراه فى « بابر نامه » يفزع إلى نظم الشعر فى أشد أوقات محنه ، كما نراه يتحدث عن الأدباء الذين اجتمعوا فى هراة حول السلطان حسين ووزيره العظيم مير على شير موانى حديث عارف ناقد . وله ديوان صغير بالتركية تتخلله قطع فارسية .

وفى هذا الديوان منظومة فى نحو ٢٥٠ بيتاً وهى نظم الرسالة الوالدية بعين الله المعروف باسم خواجه احراء من كبار الصوفية ، وتصرفنا بابر نامه الأحوال التى نظمت فيها هذه الرسالة . وأنا أثبت هنا ترجمة هذه النبذة من الكتاب لتكون مثالاً من أسلوبه فى تسجيل الحوادث وتفصيلها :

« يوم الجمعة ٢٣ من هذا الشهر (صفر) ، أحسست الحمى فى جسدى، حتى لم أستطع أن أؤدى الصلاة فى المسجد إلا بمشقة؛ ولم أستطع أن أصلى الظهر فى خزانة كتبى إلا بعد تأخير ، ومع جهد كبير . وفى اليوم الثالث، يوم الأحد ، خفت الرعشة قليلاً . ويوم الثلاثاء ٢٧ صفر ، خطر لى أن أترجم نظمى الرسالة الوالدية مولانا عبيدالله . التجأت إلى روح الشيخ وقلت لنفسى : إن قبلت هذه القربة عند الشيخ كان إبلالى من هذا المرض آية القبول كما خلص صاحب البردة من مرضه .

« نظمت هذه الليلة ١٣ بيتاً ، وشرطت على نفسى ألا أنظم أقل من عشرة أبيات كل يوم ، وقد وفيت بهذا الشرط إلا يوماً واحداً

« كانت الحمى فى السنة الماضية كلما انتابتنى دامت ثلاثين أو أربعين يوماً ، ولكن بفضل الله وبركة الشيخ أبللت من هذه النوبة يوم الثلاثاء ٢٩ من الشهر .

« وفى يوم السبت ٨ ربيع الأول أكملت نظم الرسالة . وقد نظمت يوماً اثنين وخمسين بيتاً »

كتب فى نهاية الديوان هذه العبارة « حرره بابر دوشنبه ١٥ ربيع الآخر سنة ٩٣٥ » . وفى ذيل الصفحة الأخيرة رباعية وفى حاشيتها هذه الجملة « هذه الرباعية التركية ، والاسم المبارك بالتحقيق خط أعليحضرت ساكن الجنان بابربادشاه الغازى أنار الله برهانه . حرره شاه جهان بن جها نكير بادشاه بن أكبر بادشاه بن همايون بادشاه بن بابربادشاه »

وأما كتابه بابر نامه فهو فى موضوعه نادرة من نوادر التاريخ؛ فما عرفنا قبل بابر ملكا أمضى حياته فى عراك الحوادث ثم استطاع أن يصف مشاعره، ويسجل وقائع سيرته، وسيرة أقاربه وأعوانه فى بيان واضح مفصل بعيد من التكلف يتجلى فيه اهتمام الكاتب بما يرى ويسمع ودقته فى الإدراك والوصف

وهو فى لغته وأسلوبه ذخيرة أدبية تسجل لنا لغة جغتاى فى القرن العاشر الهجرى وتبين محاولة ملك عظيم أن يذلل هذه اللغة للنثر الأدبى كما ذللها للشعر منذ سنين قليلة الوزير الكبير